

## الفكر الاقتصادي خلال العصور الوسطى: المدرسيون (السكولانيون The scholastics):

لقد وافق الفكر السكولاني فترة العصور الوسطى التي امتدت بين القرنين الخامس والخامس عشر ميلادي. خلال هذه الفترة الطويلة عاشت أوروبا الغربية مرحلتها النظام الاقتصادي الزراعي ثم الحرفي.

### أولاً- التعريف بفكر المدرسيين ورواده:

ينظر البعض إلى فكر المدرسيين على أنه اندماج لثلاثة مصادر فكرية مختلفة: فلسفة أرسطو والقانون الروماني وأفكار آباء الكنيسة. تبنى أصحاب هذا المذهب المفهوم اليوناني الروماني للقانون الطبيعي؛ فقد اقتنعوا بوجود قواعد للسلوك البشري ("أسستها" الطبيعة والعقل البشري) تقوم على معايير موضوعية أبدية.

لقد كانت ذروة الفكر المدرسي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ميلادي، ويمثل صعود وتراجع مدرسة سالامانكا (فكر علماء الديانة المسيحية الاسبان) في القرن السادس عشر نهاية عصر الفكر المدرسي.

كان القديس توما الأكويني St Thomas d'Aquin (1225-1274) الممثل الرئيسي لهؤلاء الفلاسفة السكولانيين، إلى جانب المفكرين: القديس برناردان (1380 - 1444) والقديس أنطونان (1389-1459).

### ثانياً- أهم الخصائص المميزة للفكر السكولاني:

يمكن القول عموماً بأنه على طول الفترة الممتدة من قداماء الإغريق إلى المدرسيين تميز الفكر الاقتصادي بالتركيز على الأخلاق أكثر من التحليل، أي أكثر من دراسة أسباب وتأثيرات الظواهر الاقتصادية. وكان النقاش حول مسائل التجارة وأشكال التبادل يدور في إطار محاولة جعل قضايا الملكية الخاصة وتراكم الأموال متماشية مع المعايير المجتمعية والدينية في العصور القديمة والقرون الوسطى.

### ثالثاً- المساهمات الفكرية للمدرسيين في المجال الاقتصادي:

أدلى السكولانيون بآراء حول بعض القضايا الاقتصادية، سنركز فيما يلي على أهم تلك القضايا.

#### 1- الملكية الخاصة:

كان المدرسيون يعتقدون بأن الملكية الخاصة مفيدة وفعالة، وكان مرجعهم في ذلك أساساً هو فكر أرسطو. لقد قدم توما الأكويني الحجج الثلاث التالية دفاعاً عن الملكية الخاصة:

- الملكية الخاصة هي مصدر للسلام والملكية المشتركة هي مصدر للصراع؛
- اهتمام كل الأفراد بكل شيء (كل الأمور) سيؤدي إلى الفوضى، لذلك يفضل تقسيم المسؤوليات؛
- عندما يكون هناك شخص واحد فقط هو المسؤول فإنه يولي المزيد من الاهتمام لعمله.

هذا الموقف من الملكية الخاصة يعكس جانب المنفعة منها قبل كل شيء، ويتم تعزيزه بدوافع أخلاقية.

**2- التجارة:**

لقد أكد القديس أوغوستين (St Augustin) منذ بداية القرن الخامس بأن: "الأعمال فعل محايد من وجهة نظر الأخلاق، مثل الأكل، يمكن أن يكون جيدا أو سيئا وفقاً للغايات والظروف". كما قدم توما الأكويني بعض التوضيحات بخصوص الأعمال التجارية، فهذه الأخيرة تكون مبررة بالأسباب التالية:

- نقل البضائع من الأماكن التي تتواجد فيها بكثرة إلى الأماكن التي يوجد فيها نقص منها؛
- تخزين البضائع والحفاظ عليها؛
- استيراد البضائع التي يحتاجها البلد.

**3- النقود:**

يتم تحليل قضية النقود على أساس أعمال أرسطو، فالنقود أولاً أداة للمبادلة، ولكنها أيضاً مخزن للقيمة ووحدة للحساب. كما قام السكولائيون بتحليل الظواهر النقدية المهمة المرتبطة بارتفاع الأسعار. فقد بين Azpiculta عام 1553 أنه إذا كانت الأسعار منخفضة في فرنسا ومرتفعة في إسبانيا، فذلك لأن المعادن النفيسة نادرة إلى حد ما في فرنسا ومتوفرة في إسبانيا، أي وجود علاقة عكسية بين كمية المواد والقوة الشرائية للنقود.

**4- القيمة:**

لقد استفادت نظرية القيمة من مساهمات أرسطو والقديس أوغسطين وسان توما الأكويني. الفكرة الرئيسية هي أن القيمة التي تعطى للأشياء تعتمد على المنفعة المحققة منها وهي منفعة ذاتية، فكل ما يرغب فيه.

ويؤكد برناردان (St Bernardin de Sienne) أنه يتم تقييم سلع السوق وفقاً لاستخدامها. ثم يميز بين الأبعاد الثلاثة للقيمة السوقية (Virtuositas - raritas - complacabilitas): يتم تحديد القيمة السوقية فعلاً من خلال جودة السلعة (la virtuositas)؛ كما يعتمد تحديد القيمة على ندرة السلعة (raritas)؛ ويتوقف التحديد أخيراً على المتعة المنتظرة أو الاشباع المحقق من استعمال الشيء (complacabilitas).

**5- الأسعار:**

تتبع نظرية الأسعار للمدرسين بشكل طبيعي نظريتهم للقيمة، حيث يعتمد السعر على التقييم المشترك الذي يقوم به الأعوان للسلعة، والسعر العادل (أو المناسب) هو سعر السوق (الذي يتحدد تلقائياً). وإذا كانت هناك حالة احتكار (مثلاً) فيتم اللجوء إلى السعر القانوني. ومع ذلك فالمدرسيون حذرون من قضية التسعير.

**6- الأجور والربح:**

الأجور هي ثمن العمل، وطالما يتم تحديد قيمتها على أساس التبادل الحر بين المستخدمين وأصحاب العمل فستكون الأجور عادلة. ويكون الربح عادلاً إذا كان مصدره عمليات البيع والشراء التي تتم بالأسعار العادلة.

كما اعتبر توماس الأكويني أيضا أنه يمكن للشخص تحقيق ربح طالما أنه يستخدمه في أحد الأغراض المشروعة، كضمان قوت أفراد المنزل أو تأمين حاجيات البلاد من المواد الغذائية الأساسية.

## 7- الفائدة:

منذ القرن الرابع منع رجال الديانة المسيحية القروض بفائدة، وقد كانوا عندها من كبار ملاك الأراضي. وكما هو الحال لدى أرسطو، كان المدرسيون في الأساس ضد التعامل بـ"الربا"، ذلك أن النقود كان يُنظر إليها على أنها مجرد وسيلة للتبادل، فقد كان من غير الطبيعي ومن الجشع محاولة كسب المال بشكل مضاعف.

ولكن ابتداء من القرن الثاني عشر بدأت الحياة الاقتصادية تتطور وتزدهر في أوروبا بعد فترة من الاكتفاء الذاتي النسبي، وأصبح البعض من المفكرين ينظر إلى الفائدة على أنها عامل ايجابي في هذا التطور.

بمعنى آخر، يمكن أن تكون الفائدة "عادلة" لدى المدرسيين إذا تحقق ما يلي:

- إذا كانت تعوض عن الخسارة التي يتحملها المقرض بسبب القرض أو تعوض النقص الحاصل؛
- إذا كانت هذه الفوائد مبررة بالمخاطر التي يتعرض لها المقرض.

وبالفعل، فقد قدم العديد من المدرسيين استثناءات سمحوا فيها بالفائدة؛ فإذا لم يسدد المقرض دينه في الوقت المحدد، يجوز للمقرض المطالبة بفائدة على السداد المتأخر. واعتبر آخرون بأنه إذا استطاع المقرض أن يبين بأن القروض تؤدي إلى تحميله تكاليف (حتى في شكل خسارة أرباح)، فقد يطالب بالتعويض في شكل فائدة.